مركزية النحو في نظم الخطاب الأدبي البليغ لدى الجرجاني

The Centrality of Grammar in the Organization of Literary Discourse According to Al-Jurjani

د. عاديل البقالي: باحث في علوم اللغة وتحليل الخطاب، كلية اللغة العربية، جامعة القاضي عياض، مراكش، المغرب.

Dr. Adil Elbaqali: *Researcher in Linguistics and Discourse Analysis, Faculty of Arabic Language, Cadi Ayyad University, Marrakech, Morocco.*

Email: elbaqaliadil@gmail.com

Doi: https://doi.org/10.56989/benkj.v6i3.1792

تاريخ الاستلام: 2026-01-23 تاريخ القبول: 2026-02-12 تاريخ النشر 2026-03-01

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى إبراز مركزية علم النحو في نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني، بوصفه أحد أبرز أعلام التراث اللغوي والبلاغي العربي. وتبيّن أن الجرجاني لم ينظر إلى النحو باعتباره مجرد قواعد تضبط صحة الكلام، بل عدّه الأساس الذي يقوم عليه بناء الخطاب الأدبي البليغ، وجوهر العملية النظمية التي تتحقق من خلالها بلاغة التعبير. وتركّز الدراسة على موقع النحو ضمن مراحل نظم الخطاب، ولا سيما في مرحلة التعليق النحوي بين المفردات، حيث تتحدد العلاقات التركيبية وفق مقتضيات المقام وأحوال المخاطَبين ومقاصد المخاطِب. كما توضّح أن الجرجاني جعل من مفهوم النظم نظرية متكاملة الأركان، يتصدرها توخي معاني النحو وأحكامه، موظفًا إياها في فهم الخطاب القرآني وكشف وجوه إعجازه، وفي إنشاء الخطاب الأدبي ونقده وتحليله. وقد تجاوز الجرجاني بالنحو مستوى التمييز بين الصحة والخطأ إلى مستوى أعمق يتمثل في استكشاف المزايا البلاغية واللطائف الدلالية الكامنة في التراكيب، مما رسّخ مكانة النحو بوصفه قلب النظرية البلاغية ومحورها الأساس.

الكلمات المفتاحية: عبد القاهر الجرجاني، نظرية النظم، علم النحو، الخطاب الأدبي البليغ، التعليق النحوي، البلاغة العربية، إعجاز القرآن.

Abstract:

This study aims to highlight the centrality of grammar in the theory of "nazm" (syntactic organization) as developed by Abd al-Qahir al-Jurjani, one of the most prominent figures in the Arabic linguistic and rhetorical tradition. The study demonstrates that al-Jurjani did not regard grammar merely as a set of rules governing linguistic correctness; rather, he considered it the foundational principle underlying the construction of eloquent literary discourse and the core of the organizational process through which rhetorical excellence is achieved. The study focuses on the role of grammar within the stages of discourse formation, particularly in the stage of syntactic linkage between words, where structural relations are determined according to contextual requirements, the conditions of the audience, and the speaker's intentions. It also explains how al-Jurjani established "nazm" as a comprehensive theory grounded in the meanings and principles of grammar, applying it to the interpretation of Qur'anic discourse and the exploration of its miraculous nature, as well as to the production, analysis, and النقد of literary discourse. Al-Jurjani elevated grammar beyond the level of distinguishing correctness from error to uncovering subtle rhetorical and semantic nuances embedded in syntactic structures, thereby affirming grammar as the central pillar of his rhetorical theory.

Keywords: Abd al-Qahir al-Jurjani, Nazm Theory, Arabic Grammar, Eloquent Literary Discourse, Syntactic Relations, Arabic Rhetoric, Qur'anic Inimitability.

المقدمة:

شكّلت البيئة البلاغية في التراث العربي حاضنةً فكرية خصبة أسهمت بعمق في إنضاج البحث في آليات إنتاج الخطاب الأدبي وطرائق بنائه، حيث انشغل البلاغيون بتحديد الأسس التي يقوم عليها الإبداع اللغوي، والكشف عن القوانين الداخلية التي تمنح الكلام قيمته الجمالية والتأثيرية. ويأتي عبد القاهر الجرجاني في طليعة هؤلاء الأعلام الذين أولوا عناية خاصة بالمحطات الجوهرية في نظم الخطاب، فوقف عند البنية العميقة للعلاقات اللغوية، وربطها بمقتضيات المعنى والسياق، مؤسسًا رؤية متكاملة تجعل من اللغة – ومن النحو على وجه الخصوص – منطلقًا لكل تحليل بلاغي رصين. فقد أدرك أن النحو ليس علمًا شكليًا يُعنى بضبط أواخر الكلمات فحسب، بل هو النظام الذي تنتظم به المعاني وتُبنى به الدلالات داخل الخطاب الأدبي البليغ.

ومن هذا المنطلق، أقام الجرجاني مفهوم النظم على أساس نظري متين، وجعل من توخّي معاني النحو وأحكامه قلب نظريته النابض، إذ رأى أن سر البلاغة لا يكمن في الألفاظ مفردة، بل في طريقة تأليفها وترتيبها وفق العلاقات النحوية التي تقتضيها المعاني. وقد وظّف هذا التصور في ميادين متعددة، أبرزها تفسير الخطاب القرآني والكشف عن وجوه إعجازه، فضلًا عن إنشاء الخطاب الأدبي ونقده وفهمه. فكان علم النحو عنده هو الأساس الذي تقوم عليه العربية، والمرتكز الذي تُبنى عليه جودة التعبير. غير أنّه تجاوز بالنحو مستواه التعليمي الأول، المتمثل في التمييز بين الصحيح والخطأ، إلى مستوى أعمق يُعنى باستكشاف المزايا البلاغية واللطائف الدلالية الكامنة وراء التراكيب، وبذلك ارتقى به من علم معياري إلى أداة تحليلية تكشف أسرار البيان ومكامن التفاضل في الكلام.

مشكلة الدراسة:

انطلاقًا من التصوّر الذي يجعل من النحو الركيزة الأساس في بناء المعنى وتشكيل الخطاب عند عبد القاهر الجرجاني، تبرز إشكالية هذه الدراسة في محاولة الكشف عن الموقع الحقيقي الذي يحتله علم النحو داخل نظرية النظم، بعيدًا عن اختزاله في بعده التعليمي المعياري. فهل كان النحو عند الجرجاني مجرد أداة لضبط سلامة التراكيب، أم أنه شكّل الإطار النظري العميق الذي تتأسس عليه بلاغة الخطاب وتماسكه الدلالي؟

وتسعى الدراسة إلى تفكيك هذه الإشكالية من خلال التساؤل عن طبيعة العلاقة بين النحو والنظم في تصور الجرجاني، وعن مدى إسهام القواعد النحوية ومعانيها في إنتاج الخطاب الأدبي البليغ وفهمه ونقده، ولا سيما في سياق تفسيره لإعجاز القرآن الكريم. وبذلك تتمحور المشكلة حول تحديد درجة مركزية النحو في البناء النظري للجرجاني، والكشف عن أبعاده الوظيفية والجمالية في تشكيل الخطاب البلاغي.

منهج الدراسة:

اعتمدت هذه الدراسة المنهج التحليلي بوصفه الأداة المنهجية الأنسب للكشف عن البنية النظرية التي أقام عليها عبد القاهر الجرجاني مفهوم النظم، وذلك من خلال العودة إلى النصوص المركزية في كتاب دلائل الإعجاز، باعتباره النص المؤسِّس لنظريته في البلاغة. وقد تمّ الوقوف عند المقاطع التي تتصل مباشرة بعلاقة النحو بالنظم، وتحليلها في ضوء السياق الفكري الذي وردت فيه، مع ربطها بالإطار النظري العام الذي يجعل من معاني النحو وأحكامه الركيزة الأساسية في بناء الخطاب البليغ.

أهداف الدراسة:

يمكن تلخيص أهداف هذه الدراسة في النقاط الآتية:

- الكشف عن الأسس النظرية التي أقام عليها عبد القاهر الجرجاني مفهوم النظم، وبيان مدى ارتكاز هذه النظرية على علم النحو بوصفه الركيزة المحورية في بناء المعنى وتحقيق البلاغة.
- إبراز المكانة المركزية التي يحتلها علم النحو في نظرية النظم، من خلال تحليل تصور الجرجاني لمعاني النحو وأحكامه، وبيان انتقاله بالنحو من مستوى الضبط الشكلي للصحة اللغوية إلى مستوى الكشف عن أسرار البيان ومكامن التفاضل في الخطاب.
- تحديد موقع علم النحو ضمن مراحل نظم الخطاب الأدبي البليغ، ولا سيما في مرحلة التعليق النحوي بين المفردات، عبر دراسة العلاقات التركيبية التي تنشأ داخل البنية اللغوية وفق مقتضيات المقام وأحوال المخاطَبين ومقاصد المخاطِب.
- بيان الوظيفة التداولية والجمالية للنحو في تشكيل الخطاب، من خلال رصد أثر التراكيب النحوية في توجيه المعنى، وإنتاج الدلالة، وتحقيق الانسجام بين البنية اللغوية والسياق.
- استجلاء إسهام النحو في مجالي فهم الخطاب القرآني وكشف وجوه إعجازه، وإنشاء الخطاب الأدبي ونقده، بما يبرز البعد التطبيقي لنظرية النظم في تحليل النصوص وتقويمها.

أهمية الدراسة:

تكمن أهمية هذه الدراسة في كونها تسعى إلى إعادة قراءة مراحل إنتاج الخطاب الأدبي البليغ في ضوء التصور النظري الذي بلوره عبد القاهر الجرجاني، مع إبراز الدور المحوري الذي يضطلع به علم النحو داخل هذه المراحل. فهي لا تكتفي بإبراز حضور النحو بوصفه أداة لضبط التراكيب، بل تكشف عن وظيفته العميقة في تنظيم العلاقات بين الألفاظ، وتوجيه المعاني، وتحقيق الانسجام بين البنية اللغوية ومقتضيات المقام. ومن ثمّ فإنها تسهم في توضيح كيف يتحول النحو، في نظر الجرجاني، من علم معياري إلى آلية تحليلية وجمالية تكشف أسرار التفاضل بين الخطابات.

كما تتجلى أهمية هذا البحث في وقوفه عند مقياس "معاني النحو" عند الجرجاني، بوصفه معيارًا دقيقًا لقياس بلاغة الخطاب وجودته ومزيته. فهذا المقياس لا ينحصر في التحقق من صحة التركيب، بل يتجاوز ذلك إلى بيان مواطن الحسن والقبح في الكلام، واستكشاف المزايا واللطائف الكامنة وراء انتظام الألفاظ وفق علاقاتها النحوية. وبذلك يتيح هذا التصور تقويم الخطاب من حيث مدى مطابقته لمقتضيات أحوال المخاطَبين، ومراعاته لمستوياتهم الإدراكية والمعرفية، وقدرته على تحقيق التأثير المقصود. ومن هنا تبرز قيمة الدراسة في إعادة الاعتبار للنحو باعتباره القلب النابض لنظرية النظم، والميزان الذي تُوزن به بلاغة القول وجماله.

هيكلة الدراسة:

سعيا للإجابة عن هذا الإشكال، أنجزنا بحثنا في محورين اثنين، جاء المحور الأول موسوما بـ "مركزية النحو في مفهوم النظم لدى عبد القاهر الجرجاني". أما المحور الثاني فقد جاء معنونا بـ: "مركزية النحو في محطات نظم الخطاب الأدبي البليغ عند الجرجاني.

المبحث الأول: مركزية النحو في نظرية النظم لدى عبد القاهر الجرجاني.

المطلب الأول: نظرية النظم عند الجرجاني

إن المتأمل في تاريخ العلوم والأفكار، سيجد أن النظريات اللغوية تكون في بداياتها مجرد فكرة أو مفهوم تطور عبر العصور إلى أن وصل إلى النضج والازدهار حتى أصبحت نظرية قائمة الأركان، وهو ما حصل مع نظرية النظم، فقد كانت فكرة في بداياتها، وناقشها علماء من مختلف المجالات المعرفية العربية سواء النحوية أو البلاغية أو الدلالية أو التداولية.

إن "عبد القاهر الجرجاني" ليس أول عالم تحدث عن النظم، فقد سبقه الكثير من العلماء الذين تحدثوا عن هذا المصطلح، إلا أن حديثهم عنه لم ينضج إلى المستوى الذي نضج به مع الجرجاني، إذ يمكن تصنيف جل أقوال وآراء العلماء التي قيلت حول مفهوم النظم في أربعة مفاهيم «الأول: تركيب الجملة أو الجمل، ويقرب منه الصورة والهيئة التي يكون عليها التركيب (...) الثاني: اقتران المفردات على أساس التناسب والمشاكلة (...) الثالث: ترتيب المعاني (...) الرابع: الأسلوب والطريقة من الكلام والنمط من التأليف»[1]، ويندرج تحت كل مفهوم من هذه المفاهيم الأربعة التي أعطيت للنظم مجموعة من العلماء[2] من مختلف البيئات العلمية والمعرفية، إلا أنه على الرغم من اختلاف منازعهم وتوجهاتهم العلمية والمعرفية إلا أنهم «يجتمعون على مفهوم متقارب لتلك الفكرة، وهو دلالتها

[1]- الحسيني، ضياء الدين فاضل. (2015م). نظرية النظم عند الإمام عبد القاهر الجرجاني ومباحثها (الطبعة الأولى). عمّان: دار أروقة للدراسات والنشر، ص221، 225، 227، 229.

[2]- المرجع السابق، نفس الصفحات.

على تأليف الكلام، وسبكه، وتنسيقه على نسق معين ينتحي سنن اللغة وقواعد النحاة التي انتحت هذه السنن في المفردات والتراكيب، ويختلف من مقام إلى مقام بحسب أغراض التكلم وطبيعة المخاطب أو المتلقي»[1] .

ولما جاء الجرجاني تأمل كل الآراء التي قيلت حول النظم، واستفاد منها، وتبنّى فكرة النظم وانطلق مما انتهى إليه العلماء الذين سبقوه، ومضى في إنضاجها وتطويرها حتى صارت نظرية، فهو لم يقتنع بتلك الآراء التي قيلت حول مفهوم النظم، إذ رأى أنها قاصرة عن التعبير عن المعنى الحقيقي لمفهومه، فمفهوم النظم عنده لا ينبغي أن يبقى محصورا في الطريقة في الكلام، وبذلك سعى عبد القاهر في كتابه "دلائل الإعجاز" إلى بلورة وبناء تصوره الخاص لمفهوم النظم.

المطلب الثاني: مفهوم النظم لدى الجرجاني.

إن مفهوم النظم عند الجرجاني يرتبط بمعنى الضم، أي ضم كلمة إلى كلمة في تركيب وفق تناسب نحوي ومعنوي بواسطة سلك معاني النحو، إذ «لا يَكونُ الضمُّ فيها ضمّاً، ولا المَوْقِعُ مَوْقعاً، حتى يكونَ قد توخَّى فيها معانيَ النحو، وأنك إن عمدت إلى الألفاظ فجعلتَ تُتْبعُ بعضَها بعضاً من غيرْ أنْ تتوخَّى فيها معانيَ النحوِ، لم تكن صنَعْتَ شيئًا تدعي به مؤلِّفاً »[2]، فتوخي معاني النحو أساس مفهوم النظم عند الجرجاني، إذ إن توخي معاني النحو أثناء الكلام ينتج عنه ترابط نحوي ودلالي بين الكلمات بما يوافق مقتضى حال المخاطب، ويتم هذا الترابط من خلال تعليق الكلمات بعضها ببعض بواسطة قوانين علم النحو الذي يعد من أبرز علوم اللغة العربية.

لقد بيّن الجرجاني أن التعليق بين الكلم يسير وفق حالات ثلاث؛ تتجلى الحالة الأولى في تعلق الاسم بالاسم، أما الحالة الثانية فهي تعلق الاسم بالفعل، في حين أن الحالة الثالثة والأخيرة تتجلى في تعلق الحرف بأحدهما، ولكل حالة من هذه الحالات مظاهر كثيرة جدا، وبذلك «فهذه هي الطرق والوجوه من تعلق الكلم بعضها ببعض، وهي كما تراها معاني النحو وأحكامه»[3].

إن المعاني التي تنتج عن هذا التعلق هي ما يسميها الجرجاني ب"معاني النحو" التي تتجاوز المستوى الأول المرتبط بالصحة والسلامة النحوية إلى المستوى الثاني المرتبط بالأسرار والمقاصد التي من أجلها نظم المتكلم كلامه، متوخيا في ذلك طرق التعليق النحوي بينها بما من شأنه التعبير عنها. لذلك فقد جعل الجرجاني معاني النحو أساس نظريته، نلمس ذلك أيضا في معظم التعريفات

[1]- محمد، أحمد سعد. (1999م). الأصول البلاغية في كتاب سيبويه وأثرها في البحث البلاغي (الطبعة الأولى). القاهرة: مكتبة الآداب، ص 243.

[2]- الجرجاني، عبد القاهر. (1992م). دلائل الإعجاز (الطبعة الثالثة). تحقيق: محمود أبو فهر. القاهرة: مطبعة المدني؛ جدة: دار المدني، ص170–371.

[3]- الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص8.

التي قدمها للنظم حيث يربطها بمعاني النحو، من ذلك قوله: أنَّ «"النظْمَ" هو توخِّي معاني النحوِ في معاني الكلم، وأنَّ توخِّيها في متونِ الألفاظِ مُحال»[1]، فهو يُبين أن مفهوم النظم يتمثل في توخي معاني النحو في المعاني وليس الألفاظ، لأن الألفاظ تتبع المعاني، لذلك فالمتكلم قبل نظمه للكلام يقوم أولا بتحديد المعاني في نفسه، ويتوخى فيها معاني النحو، أي يتحرى الأساليب النحوية التي تربط بين الألفاظ في النطق بما يضمن له أن يخرج أفكاره ومعانيه في شكل خطاب إلى المخاطَب. ذلك أن الألفاظ تنتظم في النطق تبعا لانتظام المعاني القائمة في النفس، لذلك فعلى المخاطِب الذي يريد إنشاء خطاب في نظر الجرجاني أن يتوخى معاني النحو في معاني الكلم، والتوخي هنا يحمل معنى التحري، ذلك أن «توخي الشيء القصد إليه، والتحري فيه، والتعمد لفعله، وهذا يشير إلى أن معاني الكلم لا تنتظم ولا تترتب لتفيد معنى مركبا إلا بسلك (معاني النحو)، وإنما يقع ذلك بفعل قاصد إليه، متحرٍّ فيه عامد إليه»[2].

ويُعرف الجرجاني النظم في عدة مواضع بأنه: "توخي معاني النحو، كما بيّن أن هذا الأخير هو المقياس الذي بواسطته نحكم على الكلام بالجودة أو الرداءة، بالحسن أو القبح، فهو مقياس ذو وظيفة نقدية، وفي ذلك يقول الجرجاني» هذا هو السَّبيل، فلستَ بواجدٍ شيئاً يَرجِعُ صوابهُ إنْ كان صواباً وخَطؤهُ إن كانَ خطأ، إلى "النَّظْم"، ويَدخلُ تحت هذا الاسم، إلا وهو معنىً من معاني النحوِ قد أُصيب به موضِعُه، وَوُضِعَ في حقه أو عُومِلَ بخلافِ هذه المعاملة، فأزيلَ عن موضعهِ، واستُعمِل في غيرِ ما ينبغي له، فلا ترى كلاماً قد وُصف بصحّةِ نظمٍ أو فسادِه، أو وُصف بمزيةٍ وفضلٍ فيه، إلاَّ وأنت تجدُ مرجعَ تلك الصحَّةِ وذلك الفسادِ وتلكَ المزيةِ وذلك الفضلِ، إلى معاني النَّحو وأَحكامه، ووَجْدتَه يَدْخل في أصلٍ من أصولهِ، ويتَّصلُ ببابٍ من أبوابه»[3].

يتضح مما سبق أن مقياس معاني النحو يعدّ من أهم المقاييس التي يمكن أن نقيس بها بلاغة صناعة الخطاب، وجودته، وحسنه، ومزيته، من خلال بيان مواطن القبح والحسن فيه، وبيان مدى موافقته لمقتضيات أحوال المخاطبين، ومراعاة مستوياتهم المعرفية والإدراكية. ذلك أن كل مخاطب له أهداف أو مقاصد أو أغراض كامنة في ذهنه، يسعى إلى ترجمتها إلى خطاب مكتوب أو مسموع، بواسطة الألفاظ واللغة المشتركة بينه وبين المخاطبين، مراعيا في ذلك معاني النحو وأحكامه. ومن ثم يمكن القول إن معاني النحو تحتل مكانة مركزية في نظرية النظم عند عبد القاهر، وهي مكانة تستمدها من جملة من المحطات المركزية التي تقوم عليها. والتي لها دور مركزي في عملية إنتاج الخطاب الأدبي البليغ، وهو ما سنبينه في المحور الآتي.

[1]- الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص361.
[2]- الحسيني، مرجع سابق، ص52.
[3]- الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 83.

المبحث الثاني: مركزية النحو في محطات نظم الخطاب الأدبي البليغ عند الجرجاني

يظهر من خلال تتبع مسار مفهوم النظم، والمواضع التي ورد فيها في كتاب "دلائل الإعجاز" عند عبد القاهر الجرجاني، أن نظم الخطاب الأدبي عند الجرجاني يمر من محطات عدة حتى يصل إلى المتلقي، إذ يبدأ من المحطة الأولى المرتبطة بتحديد القصد أو ما يسميه الجرجاني بالمعاني النفسية، ثم ينتقل إلى المحطة الثانية المرتبطة بتخير الألفاظ التي ستعكس تلك المقاصد أو المعاني التي تكمن في نفس المخاطِب، مع استحضار شحنتها الدلالية وصيغتها الصرفية، وبنيتها الصوتية، وقوتها التعبيرية أثناء عملية التخير، لتصل إلى محطة اختيار الأساليب النحوية التي تتولى التعليق بين الألفاظ المختارة تعليقا يوافق مقتضيات أحوال المخاطبين، ويعكس مقاصد المتكلمين. ومن ثم فإن الوقوف عند هذه المحطات التي يمكن اعتبارها محطات إنشاء الخطاب الأدبي البليغ يكتسي أهمية بالغة وجوهرية.

المطلب الأول: مرحلة تحديد المقاصد في النفس وتخير الألفاظ.

أولا: مرحلة تحديد المقاصد في النفس.

يعطي عبد القاهر عناية كبيرة لعنصر القصد، فهو المتحكم والموجه للكلام، لذلك أبرز في مواضع كثيرة من كتابه (دلائل الإعجاز) أن المخاطِب قبل أن يبدأ في عملية إنتاج خطابه فإنه يقوم بتحديد معاني هذا الخطاب ومقاصده في نفسه، وبمعنى آخر تحديد القصد الذي يريد إيصاله إلى القارئ، لأن أثناء عملية تحديد القصد أو الغرض الذي من أجله سيلقي كلاما؛ سيجعله يحدد طبيعة المتلقي أو المخاطَب ومستواه المعرفي، ودرجة فهمه، ويستحضر كل ما من شأنه ضمان وصول هذا القصد إلى المخاطَب. لذلك فلا بد من وجود مقصد أو «وجود غرض معين يعبر عنه المتكلم أثناء توجيه كلامه إلى المخاطب في المقام التواصلي»[1].

كما أن تحديد القصد يتحكم في عملية اختيار الألفاظ والمفردات التي ستعكس المعنى أو القصد الكامن في ذهن المتكلم، لذلك «فالنظم والترتيبُ في الكلامِ كما بيَّنَّا، عَملٌ يَعْمَلُه مؤلف الكلام في معاني الكلام لا في ألفاظِها»[2]. فنظم المخاطِب للكلام أو الخطاب في نظر ـالجرجانيـ يرتبط بالدرجة الأولى بعملية تحديد المقاصد أو المعاني في نفسه، فيرتبها ترتيبا يناسب مقتضى حال المخاطَب، فلا يرتبط بالألفاظ بالدرجة الأولى؛ إذ «لو كان القصْدُ بالنَّظم إلى اللفظِ نَفْسِه، دونَ أن يكونَ الغرضُ ترتيبَ المعاني في النَّفس، ثم النطقَ بالألفاظ على حَذْوها، لَكانَ يَنْبغي أن لا يَخْتلف

[1]ـ طلحة، محمود. (2019م). مبادئ تحليل الخطاب في التراث البلاغي العربي من خلال شروح التلخيص (الطبعة الأولى). عمّان: دار كنوز المعرفة، ص 113.

[2]ـ الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص 359.

حالُ اثنين في العِلْم بحُسْن النظم أو غير الحسن فيه، لأنهما يحسان بِتَوالي الألفاظِ في النُّطق إحساساً واحداً، ولا يَعْرِفُ أحدُهما في ذلك شيئاً يَجْهلُهُ الآخرُ»[1] .

من هنا يتضح أن رحلة إنشاء الخطاب الأدبي البليغ عند الجرجاني تبدأ بتحديد المخاطِب المقاصد في ذهنه المراد إيصالها إلى المخاطَب؛ ذلك أن المخاطِب يعدُّ العنصر الأول في العملية التخاطبية، فهو منشئ الخطاب الأدبي، ولا شك أن وراء إنشائه لهذا الخطاب عدة مقاصد وأهداف وأغراض يسعى إلى نقلها إلى المخاطَب عبر خطابه، فيستحضر المخاطَب في توجيه مقاصده، ويراعي مستواه الفكري والثقافي والاجتماعي واللغوي، وكل ما من شأنه أن يساعد المخاطَب على قبول خطابه والسعي إلى فهمه، وبذلك فليس «المتكلم طرفا مقابلا للمخاطب وحسب، ولكنه جهة في بناء الكلام، وهو باعتباره كذلك مُعَدٌّ لإلقاء الكلام وتلقيه إعدادا فطريا، ومزود بأدوات إلقاء وتلقٍّ مركوزة في نفسه، قائمة عللها في عقله وحسه»[2].

من هنا فإن دور لمخاطِب يقوم على مبدأين اثنين؛ يتجلى المبدأ الأول في التوجه إلى الغير، إذ لا يكون الخطاب خطابا إلا إذا كان موجها إلى المخاطَب، سواء كان هذا المخاطَب واحدا أو متعددا، أما المبدأ الثاني فهو إفهام هذا الغير المتوجه إليه الخطاب، ومن ثم لا بد «أن يتوجه المتكلم إلى المخاطَب بكلامه، أي أن يقصد المتكلم إبلاغ الخطاب بطريقة معينة، وأن يتمكن المخاطَب من فهم مقصود المتكلم، وأنه كان قاصدا ذلك الكلام، ولم يصدر عنه سهوا أو غلطا أو تغليطا، بحيث يتفق مع ما تم إبلاغه، ويتم هذا الإبلاغ بطريقة قصدية»[3]، فهذه المقاصد تمثل عنصرا مركزيا في إنشاء الخطاب، وهي ما يجعل من خطابه يرقى لمستوى الخطاب، وبهذا تمثل «المقصدية أحد المقومات الأساسية للنص، باعتبار أن لكل منتج خطاب غاية يسعى إلى بلوغها، أو نية يريد تجسيدها»[4]، وأثناء تحديد هذه المقاصد يستحضر المخاطِب كل ما يتعلق بالمتلقي أو المخاطَب؛ إذ وجب عليه أن يكون على معرفة بمن سيوجه لهم الخطاب.

وأثناء تحديد هذه المقاصد يستحضر المخاطِب كل ما يتعلق بالمتلقي أو المخاطَب؛ إذ وجب عليه أن يكون على معرفة بمن سيوجه لهم الخطاب، ومستوى فهمهم، ودرجة معرفتهم وثقافتهم، ولغتهم، ومعهودهم، وطرق تعبيرهم عن المعاني، وكل ما من شأنه أن يساعد المخاطَب على قبول

1- المرجع نفسه، ص: 51.

2- بودرع، عبد الرحمن. (2019م). النص الذي نحيا به (قضايا ونماذج في تماسك النص ووحدة بنائه) (الطبعة الأولى). عمّان: دار كنوز المعرفة، ص 249.

3- كروم، أحمد. (2015م). مقاصد اللغة وأثرها في فهم الخطاب الشرعي (الطبعة الأولى). عمّان: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ص 23.

4- الصبيحي، محمد الأخضر. (د.ت). مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه. بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون / منشورات الاختلاف، ص96.

كلامه، ومحاولة فهمه، وبذلك فالمخاطِب هو «الذات المحورية في إنتاج الخطاب؛ لأنه هو الذي يتلفظ به من أجل التعبير عن مقاصد معينة، وبغرض تحقيق هدف فيه، ويجسد ذاته من خلال بناء خطاب»[1]، كما يستحضر المخاطِب أيضا معهود المخاطَب في القول والبيان، بالإضافة إلى تحري السلامة اللغوية، وتجنب الغموض وكل ما من شأنه أن يؤدي إلى لبس في خطابه، وتجنب الغموض وكل ما من شانه أن يخل بإيصال مقاصده. لذلك فعملية تحديد المقاصد في النفس أو الذهن عملية أولية وأساسية ومركزية في نظم الخطاب. وسابقة لباقي المحطات الأخرى، خاصة محطة تخير الألفاظ. وهذا ما أبرزه الجرجاني في عدة مواضع من كتابه، يقول: «إنَّ الألفاظَ إذا كانتْ أوعيةً للمعاني، فإنَّها لا محالةَ تَتْبَع المعاني في مواقعها، فإذا وجَبَ لِمعنًى أنْ يكونَ أولاً في النفسِ، وجَب للفظ الدال عليه أن يكونَ مثْلَه أوَّلاً في النُّطق»[2].

ومن ثم يتضح أن محطة تحديد المخاطِب المقاصد في نفسه هي المحطة المتحكمة والموجهة لمحطة تخير الألفاظ، وكذلك في محطة اختيار التعليق النحوي المناسب للربط بين الألفاظ التي تم اختيارها بما يوافق المقام ويناسب مقتضى حال المخاطَب، ومن ثم يمكن القول: إن «للقصد تأثيرا في بنية النص وأسلوبه، ذلك أن الكاتب يبني نصه بناء معينا، ويختار لذلك الوسائل اللغوية الملائمة بما من شأنه أن يضمن تحقيق قصده»[3]. ولذلك يعمد المخاطِب إلى نظم خطاب منسجم ومتسق، وذلك عبر انتقاله إلى باقي محطات نظم الخطاب الأدبي البليغ المتبقية. إذ إنه مطالب بأن يُحسن التأليف والسبك بين الكلمات أثناء نظمه للخطاب؛ تأليفا وسبكا يجعل من خطابه الأدبي خطابا متماسكا، حيث يستعمل كل تقديم وتأخير أو حذف وذكر أو تعريف وتنكير أو فصل ووصل وغير ذلك من الأساليب النحوية في الموضع الأنسب الأليق به وفق ما يعكس قصد المتكلم وأغراضه من جهة وموافقته للمقام ومقتضى حال المخاطَب من جهة ثانية، وبهذا فحسن التأليف والسبك يزيد من وضوح المعاني، وقوة انسجام الخطاب.

كما أن منشئ الخطاب في نظر الجرجاني عندما يقوم بعملية تحديد المعاني وترتيبها في نفسه، لا يدخر جهدا في عملية ترتيب الألفاظ في النطق، ذلك أن هذه الأخيرة خدم للمعاني وتابعة لها، فلا تحتاج إلى فكر وروية أخرى في نظمها وترتيبها، فيكون بذلك تحديد المعاني أو المقاصد متحكم في عملية ترتيب الألفاظ الدالة عليها في النطق، لذلك فالنظم والترتيب يكون بالدرجة الأولى في المعاني لا في الألفاظ؛ إذ لا يتصور في نظر الجرجاني «أنْ تَعرِفَ للفظ موضعًا من غيرِ أن تَعْرف معناه، ولا أنْ تَتوخَّى في الألفاظِ من حيثُ هي ألفاظٌ ترتيباً ونظماً، وأنَّك تَتوخَّى الترتيبَ في المعاني وتُعْمِل

[1]- الشهري، عبد الهادي. (2015م). استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية) (الطبعة الثانية). عمّان: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ص83.

[2]- الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 52.

[3]- الصبيحي، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، ص 97.

الفكْرَ هناك، فإذا تَمَّ لك ذلك أتْبَعْتَها الألفاظَ وقَفَوْتَ بها آثارَها، وأنَّك إذا فرَغْتَ من ترتيبِ المعاني في نفسِك، لم تحتجْ إلى أن تستأنفَ فكْراً في ترتيبِ الألفاظِ، بل تَجدُها تَترتَّب لك بحُكْم أنها خَدَمٌ للمعاني، وتابعةٌ لها، ولاحِقةٌ بها، وأن العِلْم بمواقعِ المعاني في النَّفس، علمٌ بمواقعِ الألفاظ الدالة عليها في النطق»[1].

وبهذا يتضح أن عملية تحديد المقاصد في النفس عملية مركزية في نظم الخطاب البليغ عند الجرجاني، إذ لا يكون الخطاب خطابا إلا إذا كانت وراءه مقاصد، لذلك «فالمقصدية أحد المقومات الأساسية للنص، باعتبار أن لكل منتج خطاب غاية يسعى إلى بلوغها، أو نية يريد تجسيدها»[2]. وبدون هذا المقصد يصير الخطاب جافا، وقد لا ينال حظا من القراءة والدراسة.

ثانيا: مرحلة اختيار ألفاظ الخطاب الأدبي.

ينتقل المخاطِب بعد تحديده للمقاصد إلى المحطة الثانية المتعلقة بتخيّر الألفاظ القادرة على التعبير عن هذه المقاصد، وهي عملية يراعى فيها عدة خصائص، أهمها الخاصية المعجمية، والخاصية الدلالية، والخاصية الصرفية. ذلك أن اللغة تشتمل على ألفاظ ومرادفات كثيرة، ولكل كلمة أو لفظة قوة ودرجة في التعبير عن جزء من المعنى، وبمعنى آخر كل مفردة تتميز بشحنة دلالية، وقدرة تصويرية، وخاصية جمالية، وقوة تعبيرية...، قد لا تكون في المفردة الأخرى المرادفة لها. لذلك «فإذا أراد المتكلم التعبير عن قصده عمد إلى الألفاظ فاختار منها ما يعبر به عن حاجته وقصده»[3].

فيكون تحديد القصد هو الموجه والمتحكم في اختيار الألفاظ التي من شأنها التعبير عن هذا القصد، خاصة وأن اللغة العربية لغة الترادف، إذ نجد لكل لفظة عدة مرادفات في المعجم؛ وكلها تنتمي إلى حقل دلالي واحد، غير أن الاختلاف البسيط يكمن أساسا في مدى الدقة والقوة في التعبير عن المعنى؛ إذ لكل مفردة أو لفظة شحنتها الدلالية التي تزيدها درجة عن اللفظة الأخرى.

وقد وضع علماء البلاغة الذين سبقوا الجرجاني أو الذين عاصروه؛ أمثال ابن سنان الخفاجي وغيره، جملة من شروط الفصاحة للألفاظ[4]، فإذا تحققت هذه الشروط في اللفظة يحكمون عليها بالفصاحة، وإذا لم تتحقق لا يحكمون عليها بالفصاحة. وقد رفض الجرجاني تلك الشروط؛ مبينا أنها

---

[1]- الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 53 – 54.

[2]- الصبيحي، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، ص: 96.

[3]- شامي، مليكة. (2019م). مباحث بلاغية وعلاقتها بالتداولية: التلاؤم والفواصل والتجانس. سلسلة الترجمة والمعرفة، العدد (12). إربد: عالم الكتب الحديث، ص 158.

[4]- الخفاجي، ابن سنان. (1982م). سرّ الفصاحة (الطبعة الأولى). بيروت: دار الكتب العلمية..

تتحقق أحيانا وأحيانا لا تتحقق، وبالتالي فهي شروط ومقاييس غير قارة وغير ثابتة. ومن ثمة لا يجب الاهتمام بها أو الاحتكام إليها.

من هنا اعتبر الجرجاني أن المعايير والمقاييس التي وضعت للحكم على اللفظة بالفصاحة أو عدمها معايير ومقاييس غير قارة وغير ثابتة، واستدل في ذلك بأن اللفظة الواحدة تجدها تأتي في بعض المواضع فصيحة وفي بعض المواضع الأخرى غير فصيحة، من ذلك لفظة "الأخدع" نلمس ذلك في قوله: «وممَّا يَشهد لذلك أَنَّك تَرى الكلمةَ تروقُك وتُؤنسك في موضعٍ، ثم تَراها بعينِها تَثْقُلُ عليكَ وتُوحِشُك في موضعٍ آخرَ، كلفظِ "الأَخدع" في بيت الحماسة:

تلفَت نَحْو الحَي حَتّى وجدتني *** وجِعْت من الإصغاءِ لِيتا وأَخْدَعا

وبيت البحتري:

وإني وإن بَلَّغْتَني شرَفَ الغِنى *** وأَعْتَقْتَ مِنْ رَقِّ المَطَامِعِ أَخْدَعِي

فإنَّ لها في هذين المكانَين ما لا يَخْفى مِن الحُسْن، ثم إنّكَ تتأَمَّلها في بيت أبي تمام:

يا دَهْرُ قوِّمْ مِن اخْدَعَيْكَ فقدْ *** أَضْجَجْتَ هذا الأنامَ مِن خَرُقِكْ

فتَجدُ لها مِنَ الثقل على النفس، ومن التنغيص والتكْدير، أضعافَ ما وجدتَ هناك منَ الروْح والخفة، ومن الإيناس والبهجة»[1]. يظهر من كلام الجرجاني أن مرجع فصاحة الألفاظ إنما هو النظم والتعليق، لأن تعليق الألفاظ في النطق ما هو إلا انعكاس لتعليق المعاني في النفس عبر سلك معاني النحو وأحكامه.

إن فصاحة الكلمة تبرز أساسا في حسن ملاءمتها لما قبلها وما بعدها داخل النظم؛ وفي هذا يقول الجرجاني: «وهل تَجد أحداً يقولُ: "هذه اللفظةُ فصيحةٌ"، إلاَّ وهو يعتبرُ مكانَها منَ النظم، وحسنَ ملاءمة معناها لمعاني جاراتها، وفضل مؤانستها لأخواتها؟»[2]، فمعيار فصاحة اللفظة عند الجرجاني هو النظم. عندما تتعلق اللفظة بما قبلها وما بعدها. فلا يمكن القول بأن مفردات اللغة هي مركز القوة والجمال في الخطاب الأدبي؛ بحيث يكون مرجع القوة والجمال لتوفرها على شروط الفصاحة في ذاتها قبل دخولها في التأليف والتركيب أو النظم، ومن ثم «لا يمكن المفاضلة بين اللفظتين إلا بعد وضعهما في نظام معين، وفي تركيب لغوي مخصوص، وبمقدار ملاءمة اللفظة

[1]- الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص47.

[2]- المصدر نفسه، ص44.

لبقية الألفاظ، التي يتكون منها التركيب اللغوي لكسب جمالها ولطفها، وبمقدار تنافرها مع جاراتها في التركيب تكون درجتها من الثقل والاستكراه»[1].

فإذا كان المعنى واضحا فإنه يستدعي لفظا واضحا، وإذا كان المعنى غريبا فإنه يستدعي لفظا غريبا، فطبيعة اللفظ تابعة لطبيعة المعنى، وبذلك «إذا كانت وحدات اللغة هي الألفاظ المفردة، فإن عبد القاهر يرى أن هذه الألفاظ المفردة، ليست إلا رموزا للمعاني المفردة، التي تدل عليها هذه الرموز، فالألفاظ قد وضعت لتدل على معانيها، ولا يتأتى أن تسبق الألفاظ معانيها، وأن تكون أسماء الأشياء قد وضعت قبل أن تعرف معانيها، فذلك ضرب من المحال»[2].

ويراعى في عملية تخير الألفاظ عدة مستويات وجوانب أهمها: الجانب المعجمي؛ إذ لا بد في تخير الألفاظ من مراعاة معناها المعجمي؛ حيث يعد هذا الأخير ركيزة أساسية للعنصر الدلالي في عملية النظم، خاصة وأنه من الأسس التي ينبني عليها الكلام أثناء تعليق هذه الألفاظ مع بعضها البعض، إذ لا يمكن أن يكون التعليق بين مفردات لا تربطها أية رابطة دلالية أو معنوية، فلو «أبحنا لأنفسنا أن نتساهل قليلًا في أمر التمسُّك بالمعنى المعجمي فكوَّنَّا نسقًا نطقيًّا من صورة بنائية عربية لا معنى لها من الناحية المعجمية، لأمكن لنا أن نعرب هذا النسق النطقي (...) ونتجاهل الاعتبارات المعجمية، فنجعل المباني التي اخترناها محققة بألفاظ هرائية لا معنى لها في المعجم. ومن ثَمَّ لا يكون النسق النطقي الذي "اقترفناه" جملة عربية بأية صورة من صور الجملة. انظر مثلًا إلى ما يأتي: قَاصَ التَّجِينُ شِحَالَه بِتَرِيسِه (...) فاخِي فَلَمْ يَسْتَفِ بِطَاسيةِ الْبَرَنْ»[3].

كما تعد مراعاة الجانب المعجمي للألفاظ أثناء عملية النظم أمرا في غاية الأهمية. خاصة وأن المعاني المعجمية للمفردات تعدّ من الأمور المشتركة بين المتكلم والمتلقي، وهذه المعرفة الأولية بمعاني المفردات المعجمية لا تمثل سوى المستوى الأول المشترك بين المتكلم والمتلقي، فلا يقف المتكلم عند هذا المستوى بل يتجاوزه إلى مستوى التأليف بين هذه المفردات لتعطي معنى يعكس قصده، ومن ثم «فمعلومٌ أنَّكَ، أيها المتكلمُ، لستَ تقصدُ أن تُعلمَ السامع الكَلِم المفردةِ التي تكلُمُه بها، فلا تقولُ: "خرجَ زيدٌ"، لِتُعْلِمَه معنى "خرَج" في اللغةَ، ومعنى "زيدٌ". كيفَ؟ ومُحالٌ أن تُكَلِّمَه بألفاظٍ لا يعرفُ هو معانيها كما تعرف. ولهذا لم يكنْ الفِعْلُ وحدَهُ مِن دون الاسم، ولا الاسمُ وحدَه من دون اسمٍ آخَرَ أو فعلٍ، كلاماً»[4].

---

[1]- العمري، أحمد جمال. (1990م). المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني (نشأتها وتطورها حتى القرن السابع الهجري). القاهرة: مكتبة الخانجي، ص 243..

[2]- المرجع نفسه، ص237.

[3]- حسان، تمام. (2006م). اللغة العربية: معناها ومبناها (الطبعة الخامسة). القاهرة: عالم الكتب، ص182–183.

[4]- الجرجاني، عبد القاهر، دلائل الإعجاز، ص: 412.

وبالتالي يتضح أن الجرجاني كان على وعي بأهمية المعنى المعجمي للمفردات، إذ بيّن أنه لا يصح للمتكلم أن يتفكر في معنى فعل من غير أن يريد إعماله في اسم، أو أن يتفكر في معنى اسم من غير أن يريد إعماله في فعل، وذلك بأن يجعله فاعلا أو مفعولا، فتعانق معاني المفردات المعجمية تكتسي أهمية بالغة في أي نظم يريد أن ينظمه المتكلم، فإذا «أردْتَ أن تَرى ذلك عِياناً فاعْمَدْ إلى أيّ كلامٍ شئْتَ، وأزِلْ أجزاءَهُ عن مواضِعها، وضْعاً يَمْتَنِعُ معه دخولُ شيءٍ من معاني النحو بها، فقل في: قِفَا نَبْك مِنْ ذِكرى حبيبٍ ومَنْزِلِ "مِنْ نَبْك قِفَا حبيبٍ ذكرى منزِلِ"، ثم انظرْ هل يتعلَّقُ منكَ فكْرٌ بمعنى كلمة منها؟»[1]. لذلك فمراعاة المعنى المعجمي للمفردات أمر أساسي، إذ يمثل المستوى الأول الذي يتم عبره الانتقال إلى المستوى الثاني المرتبط بالتعليق النحوي بها، إذ يكسبها التعليق معان إضافية جديدة.

إضافة إلى الجانب المعجمي، هناك جانب آخر على المخاطِب أن يراعيه أثناء عملية تخير الألفاظ، وهو الجانب الصرفي؛ فلا بد أن يراعي بنيتها أو صيغتها الصرفية، إذ لكل صيغة صرفية معنى ودلالة تختلف به عن الصيغة الصرفية الأخرى، فاختلاف الصيغ ينتج عنه بالضرورة اختلاف المعاني، وبمعنى آخر: «إذا اختلفت الصيغة لا بد أن يختلف معها المعنى المراد، فصيغة (فعال) غير (فعول) حتى وإن ملئت هاتان الصيغتان بمادة معجمية واحدة فقلنا (صبّار) و(صبور)، أو (غفّار) و (غفور)»[2].

وقد أشار الجرجاني إلى أن اللغة تتضمن عدة صيغ صرفية. وتبقى قدرة المتكلم في حسن تخيره للصيغ المناسبة القادرة على كشف المعنى الكامن في نفسه، فالتعبير بصيغة الاسم يختلف عن التعبير بصيغة الفعل، ويكمن هذا الاختلاف في كون «موضوع الاسم على أن يُثْبَتَ به المعنى للشيءِ من غيرِ أن يَقتَضي تجدُّده شيئاً بعْدَ شيء. وأما الفعلُ فموضوعُه على أنه يقتضي تَجدُّدَ المعنى المُثْبَت به شيئاً بعْدَ شيء»[3]. فالتعبير بصيغة الاسم يفيد الثبات والدوام، أما التعبير بصيغة الفعل فإنه يفيد التجدد والاستمرار، وهكذا فلكل صيغة صرفية دلالة خاصة؛ دلالة يمكن أن تساهم في التعبير عن المعاني المتضمنة في النفس. كما يجب أن يراعي أيضا الجانب الصوتي للكلمة التي يريد اختيارها والجانب الدلالي أيضا؛ خاصة وأن لكل مفردة مرادفات كثيرة؛ كل لفظة تتميز عن الأخرى بشحنة دلالية تميزها عن الألفاظ الأخرى. إذ لكل مفردة شحنتها الدلالية، وقوتها التعبيرية، وجماليتها التصويرية. وعملية تخير الألفاظ بهذه الجوانب محكومة بالمعاني التي حددها المخاطِب في نفسه. ومما لا شك فيه أن عملية تخير الألفاظ يتفاعل فيها علم المعجم، وعلم الأصوات، وعلم

[1]- الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 410.

[2]- بريك، محروس. (2018م). النحو والإبداع. عمّان: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ص69.

[3]- الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 174.

الصرف، وعلم الدلالة تفاعلا ذو طابع تكاملي، خاصة وأنها تمثل الجوانب التي ينبغي للمتكلم أن يراعيها في عملية اختياره للألفاظ بدقة عالية.

المطلب الثاني: مرحلة التعليق النحوي بين الألفاظ المختارة.

يقوم المخاطِب بعد عملية تحديده للمقاصد التي يريد إيصالها إلى المتلقي، وبعد عملية اختياره للألفاظ التي سيعبر بها عن هذا المقصد؛ مراعيا في اختيارها عدة مستويات كالمستوى المعجمي والمستوى الصرفي والمستوى الدلالي، بالانتقال إلى المحطة الثالثة، وهي محطة اختيار التعليق النحوي الذي سيربط بين المفردات المختارة. وفي ذلك يقول الجرجاني: «واعلمْ أَنك إذا رجعتَ إلى نفسِك علمتَ علْماً لا يعترضُه الشكُّ، أنْ لا نَظْمَ في الكَلِم ولا ترتيبَ، حتى يُعلَّقَ بعضُها ببعضٍ، وَيْبني بعضُها على بَعض، وتُجعلَ هذه بسبب من تلك. هذا ما لا يَجهلُه عاقلٌ ولا يخْفَى على أحدٍ منَ الناس. وإذا كانَ كذلك، فبِنا أَنْ نَنْظر إلى التَّعليق فيها والبناءِ، وجعْلِ الواحدةِ منها بسببٍ من صاحِبَتِها، ما معناهُ وما مَحْصولُه؟ وإذا نَظَرْنا في ذلك، عَلِمْنا أنْ لا محصولَ لها غيرُ أنْ تَعْمدَ إلى اسمٍ فتَجْعلَه فاعلاً لفعلٍ أو مفعولاً، أو تَعْمَدَ إلى اسمَيْن فتَجْعلَ أحدَهما خبراً عنِ الآخر أو تُتْبعَ الاسمَ اسماً على أن يكونَ الثاني صفة للأول«[1]، فالتعليق النحوي بين الألفاظ هو الذي يكسبها معناها، حيث توضع في أسلوب نحوي تتعالق فيه مع ما قبلها وما بعدها في النظم لتعبر عن مقصد من مقاصد منتج الخطاب.

إن بلاغة المتكلم تكمن أساسا في قدرته على اختيار الأسلوب النحوي أو الأساليب النحوية التي ينظم عبرها الألفاظ التي اختارها، من هنا "لا بد للبليغ من ذوق نحوي شديد، يحسن التألف بين الكلمات لتدل على معنى دقيق معين"[2]، فيُقدم ويُؤخر ويُذكِر ويَحذف، ويُعرّف ويُنكِّر ويصل ويفصل بما يوافق مقام المخاطبين ومقتضيات أحوالهم، وبذلك فالمتكلم «يتصرَّفَ في التّعريفِ، والتَّنكيرِ، والتّقديمِ والتأخير، في الكلام كلِّه، وفي الحذف، والتكرار والإضمار، والإظهار، فيصيب بكل من ذلك مكانَه، ويستعملَه على الصِّحة وعَلَى ما ينبغي له»[3]، وينتج عن انصهار عمليتي تخير الألفاظ وعملية تخير الأساليب النحوية التي تقوم بالتعليق بينها وفق المقام ومقتضى الحال معنى من معاني النحو. وفيه تكمن المزية ويعكس قصد المتكلم. وبذلك «كان النحو عند عبد القاهر مستويان: مستوى الصواب والخطأ، وما يستتبعه من معرفة بمواقع الإعراب، ومعنى أبواب النحو الوظيفية من فاعلية ومفعولية وإضافة وغيرها، وذلك مستوى لا تفاضل فيه ولا مزية.

[1]- الجرجاني، دلائل الإعجاز ، ص: 55.

[2]- الشايب، أحمد. (2003م). الأسلوب (الطبعة الثانية عشرة). القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، ص 190.

[3]- المصدر السابق، ص82.

أما المستوى الآخر: فهو قائم على توخي معاني هذه الأبواب، ومعرفة مواقعها، ومقاماتها التي تحسن فيها وتقبح، وهو ما تترتب عليه جمال الصياغة، وتتحقق به المزية والتفاضل وحسن النظم»[1].

وبذلك فمقاصد المخاطِب تتحصل من خلال التعليق النحوي بين الألفاظ المختارة؛ تعليقا يناسب مقام المخاطَب ومقتضى حاله، ولا تنشأ من معاني الكلمات المفردة، بل بالتعليق بينها في تركيب نحوي يستحضر البنية المعرفية والذهنية للمخاطَب، فأحيانا يكون تقديم المفعول أولى من تأخيره، وأحيانا يكون التنكير أولى من التعريف، وأحيانا يكون الحذف أولى من الذكر، والإيجاز أولى من الإطناب، حسب ما يتطلبه المقام ومقتضى حال المخاطب، والسياق، خاصة وأن هذا الأخير يمثل «ركيزة ضرورية من بين الركائز التي يقوم عليها أي استعمال لأي نسق تواصلي، ذلك أنه لا يعقل أي تواصل إلا باعتباره حدثا تفاعليا محفوفا بملابسات الزمن والمكان والخلفيات المعرفية للأطراف المتفاعلة، وكما أن التفاعل بالأنساق يعني وجود الخطاب، فإن وجود الخطاب يعني حتما قيامه على سياق داخلي يحكم علاقات مكوناته ببعض وفق ما تسمح به الأنساق»[2].

إن المخاطِب –بعد تحديده للمعاني والمقاصد في ذهنه- يعمد إلى اختيار التعليق النحوي الملائم، فيختار الأسلوب النحوي الذي سينظم فيه الكلمات، بحيث يكون هذا الأسلوب أكثر قربا وتوضيحا للمعنى؛ فإذا كان المتكلم يريد التعبير عن مقاصده فسيوظف الأسلوب الحقيقي، وإذا أراد أن يستعمل تصويرا فنيا فإنه يلجأ إلى علم البيان، ويختار أسلوب المجاز أو الاستعارة أو الكناية أو التشبيه وغير ذلك من أساليب البلاغة المعروفة، والتي جعلها الجرجاني من ضروب النظم؛ ذلك أن: «"الاستعارة"، و"الكناية" و"التمثيل"، وسائرُ ضُروبِ "المجاز" مِن بَعْدِها من مُقْتَضياتِ "النظم"، وعنه يحدث وبه يكونُ؛ لأنه لا يُتصوَّر أن يَدخُلَ شيءٌ منها في الكَلِم وهي أفرادٌ لم يُتَوخَّ فيما بينَها حكْمٌ من أحكام النحو؛ فلا يُتَصَّورُ أن يكونَ ههنا "فعلٌ" أو "اسمٌ" قد دَخلَتْهُ الاستعارةُ، مِن دونِ أنْ يكونَ قد أُلِّفَ مع غيره؛ أفلا تَرى أنه إنْ قدَّر في "اشتعلَ" من قوله تعالى: "وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا"[مريم: 4]، أنْ لا يكونَ "الرأسُ"، فاعلاً له، ويكونَ "شيباً" منصوباً عنه عَلَى التمييز، لم يُتصوَّرْ أن يكونَ مستعاراً؟ وهكذا السبيلُ في نظائرِ "الاستعارةِ"، فاعرفْ ذلك»[3].

فإذا أراد المتكلم أن يخرج كلامه في صورة إنشاء، فإنه يختار من أساليب الإنشاء الأسلوب الأنسب للتعبير عن مقاصده، وهكذا فطرق التعليق كثيرة جدا، فالفكرة التي يركز عليها الجرجاني هي كون هذه الطرائق والاختيارات هي التي يتميز بها كلام عن كلام، ويفضل بها خطاب عن خطاب،

---

[1]- محمد، الأصول البلاغية في كتاب سيبويه وأثرها في البحث البلاغي، ص273.

[2]- علوي، عبد السلام الإسماعيلي. (2017م). السميولسانيات وفلسفة اللغة (الطبعة الأولى). عمّان: دار كنوز المعرفة، ص77.

[3]- الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص: 393.

ذلك أن المعنى موجود، والألفاظ موجودة، ولكن يبقى مكمن المزية والبلاغة في قدرة منتج الخطاب في إقامة واختيار التعليق والترتيب النحوي المناسب لإظهار صورة المعنى. وبما يناسب المقام، ومقتضى حال المخاطب، إذ إن «مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة، مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال»[1].

وبتعبير آخر تُعنى هذه المرحلة بالتعليق النحوي بين الكلمات، حيث ينتقل المخاطِب إلى التعليق بين الألفاظ مراعيا في هذا التعليق قواعد النحو وقوانينه من جهة، ومقتضى حال المخاطب من جهة ثانية. ذلك أن فكرة مراعاة المقام للمقال من العناصر الجوهرية التي لا بد للمخاطِب أن يكون على علم بها أثناء عملية التعليق، ذلك أن معرفة المخاطِب لقدر مخاطبيه ومنزلتهم ومستوياتهم المعرفية تعتبر أساسية وجوهرية، إذ «ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني، ويوازن بينها وبين أقدار المستمعين وبين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما ولكل حالة من ذلك مقاما، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني، ويقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، وأقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات»[2]، إذ لا يمكن لخطابه (المتكلم) أن يحقق التأثير والإقناع إذا لم يكن موجها ومكيفا بحسب الحاجات الخاصة التي تقتضيها فئات المخاطبين، الذين تختلف وضعياتهم، وتتباين مراتبهم، وتتفاوت أفهامهم، لذلك «فالمتكلم ملزم بمراعاة أحوال المخاطبين وظروفهم من أجل إفهامهم وإقناعهم، فقد اهتم العلماء العرب بمنازل المخاطبين وأقدارهم الاجتماعية، لذا ألحوا على فكرة مناسبة الكلام لشخصية المخاطَب فلكل جماعة كلام، ولكل طبقة مقال»[3]، ومن ثم تكون مراعاة مقتضى حال المخاطبين، ومعرفة معهودهم في القول والبيان من أبرز القوانين التي على المخاطِب مراعاتها أثناء عملية اختيار الأساليب النحوية للتعليق بين تلك المفردات في نظمه وإنشائه للخطاب. ذلك أن الكلمة لا تكتسب معناها وقيمتها إلا عندما توضع في النظم أو التركيب، عندما تتعالق مع ما قبلها وما بعدها في خطاب، فبلاغة الخطاب لا تتحقق من خلال النظر إلى مفرداته منعزلة بعضها عن بعض، وإنما تتحقق عندما توضع تلك المفردات في النظم أو التركيب.

إن نظرية النظم القائمة على تحديد المقاصد في الذهن، وتخير الألفاظ، وتخير الأساليب النحوية بما يوافق المقام ومقتضى حال المخاطب، لها ارتباط قوي باللغة، كما أن لها مكانة قوية في صياغة الخطاب الأدبي صياغة دقيقة ومحكمة. إذ يمثل «المقام أحد المقومات الفاعلة في اتساق النص، وخاصة من الناحية الدلالية، وعليه فإن نصية الخطاب، لا تكتمل ولا تستقيم إلا إذا راعى صاحبه في إنجازه الظروف المحيطة التي سيظهر فيها النص، لذا فإن أي خطاب يبتعد كثيرا عن

[1]- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر. (1423هـ). البيان والتبيين. بيروت: دار ومكتبة الهلال، ج1، ص 129..
[2]- المصدر السابق، ص131.
[3]- بواجلابن، الحسن. (2019م). بلاغة الانزياح الشعري في تداولية المعنى. سلسلة الترجمة والمعرفة، العدد (12). إربد، الأردن: عالم الكتب الحديث، ص 118.

التقاليد الأدبية السائدة وعن الأعراف الاجتماعية المتعارف عليها لن يلاقي قبولا حسنا»[1]، لذلك فبلاغة المخاطِب تكمن أساسا في استحضاره للمقام والسياق ومقتضى حال المخاطب أثناء تأليفه للخطاب البليغ، وفي هذا يقول القزويني «وأما بلاغة الكلام فهي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته»[2]. فينتج عن ذلك فكرة مفادها أن بلاغة الخطاب تكمن في مدى مطابقته لمخاطبيه، وقدر عقولهم، فيحرص على المناسبة بين مقاصده وبين مستوى المخاطبين، من هنا تبرز مكانة نظرية النظم بمحطاتها في إنشاء خطاب أدبي بليغ هادف ومؤثر؛ مشبع بالمقاصد والأغراض. لتنتهي مهمة الأديب، وتبدأ مهمة المخاطَب في تحليل الخطاب واستنطاقه. إذ "يوهمنا المعنى – رغم اكتمال النص– أنه غير مكتمل، خاصة وقد وزع الأديب أجزاءه على مناطق النص الرحبة، فلا تظهر إلا أبعاضه متفرقة هنا وهناك، لا يدركها متآلفة لحظة الولادة إلا مؤلف النص، لأنه هو الذي حدد مكامنها، وأبدع في توزيعها، وأتقن بناءها، تاركا الأمر للقارئ لكي يلم شتاتها من جديد بما أوتي من خبرات وثقافة وذوق"[3]، ومن ثم فهو يقوم بدراسة النص من مختلف الجوانب بغية الوصول إلى المعاني النحوية التي تعكس مقاصد المخاطِب، من خلال تحليل طرق التعليق بين المفردات بغية الوصول إليها، واستخراجها، والعمل بها والانتفاع بها في الواقع والوجود.

يتضح إذن أن منشئ الخطاب البليغ عند عبد القاهر الجرجاني ملزم بمراعاة محطات إنشاء الخطاب الأدبي البليغ، والمتمثلة أساسا في محطة تحديد المعاني في النفس (القصد)؛ باعتبارها محطة موجهة ومتحكمة في محطة تخير الألفاظ، ثم محطة تخير الأساليب النحوية التي ستقوم بالتعليق بين المفردات المختارة؛ تعليقا يعكس مقاصد منشئ الخطاب ومتضمنة في خطابه لتنتهي مهمة المخاطِب وتبدأ مهمة المخاطَب في دراسة وتحليل الخطاب الموجه إليه، مع السعي إلى الكشف عن المعاني التي كنزها فيه الأديب.

النتائج:

نخلص مما سبق تناوله في هذه الدراسة إلى العديد من النتائج أبرزها:

- **أولا:** إن النحو عنصر مركزي في نظم الخطاب الأدبي لدى البلاغيين، وقد أبرزنا ذلك من خلال الوقوف عند كتاب (دلائل الإعجاز) للجرجاني، كنموذج يمثل هذه البيئة البلاغية.

---

[1]- الصبيحي، مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه، ص 98.

[2]- القزويني، الخطيب جلال الدين محمد بن عبد الرحمن. (د.ت). الإيضاح في علوم البلاغة (الطبعة الثالثة). تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي. بيروت: دار الجيل، ص 41.

[3]- مغراوي، الحبيب. (2023م). المعنى الأدبي بين خصوصية التشكيل ورهان الفهم والتأويل (الطبعة الأولى). عمّان: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع، ص 171.

- **ثانيا:** إن مفهوم معاني النحو من المفاهيم المركزية في مفهوم النظم لدى عبد القاهر الجرجاني، ومن أهم المقاييس التي يمكن أن نقيس بها بلاغة صناعة الخطاب، وجودته، وحسنه، ومزيته، من خلال بيان مواطن القبح والحسن فيه، وبيان مدى موافقته لمقتضيات أحوال المخاطبين، ومراعاة مستوياتهم المعرفية.
- **ثالثا:** إن كل مخاطب له أهداف أو مقاصد أو أغراض كامنة في ذهنه، يسعى إلى ترجمتها إلى خطاب مكتوب أو مسموع، بواسطة الألفاظ واللغة المشتركة بينه وبين المخاطبين، مراعيا في ذلك معاني النحو وأحكامه.
- **رابعا:** إن النحو يحتل مكانة مركزية في نظرية النظم عند عبد القاهر، ويحتل أيضا مكانة مركزية في محطات نظم الخطاب الأدبي البليغ.
- **خامسا:** إن مراحل إنشاء الخطاب الأدبي البليغ تتمثل في مرحلة تحديد المعاني في النفس (القصد)؛ باعتبارها مرحلة موجهة ومتحكمة في مرحلة تخير الألفاظ، ثم مرحلة تخير الأساليب النحوية التي تقوم بالتعليق بين المفردات المختارة؛ تعليقا يعكس مقاصد منشئ الخطاب ومتضمنة في خطابه لتنتهي مهمة المخاطِب وتبدأ مهمة المخاطَب أو المتلقي في دراسة وتحليل الخطاب الموجه إليه، والسعي إلى الكشف عن المعاني التي كنزها فيه الأديب.

التوصيات:

في ختام هذه الدراسة لا بأس من تقديم بعض التوصيات التي نراها في غاية الأهمية، وأبرز هذه التوصيات ما يلي:

- أولا: العناية بعلم النحو لما له من دور كبير في عملية إنتاج الخطاب الأدبي وتأويله.
- ثانيا: تنظيم ندوات علمية واستكتابات علمية في موضوع "النحو وتحليل الخطاب".
- ثالثا: تطوير البحث في الحقول المعرفية العربية والغربية ذات الصلة بالنحو وتحليل الخطاب.

قائمة المصادر والمراجع:

- بريك، محروس. (2018م). النحو والإبداع. ط1، عمّان: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع.
- بواجلابن، الحسن. (2019م). بلاغة الانزياح الشعري في تداولية المعنى. سلسلة الترجمة والمعرفة، العدد 12، إربد: عالم الكتب الحديث.
- بودرع، عبد الرحمان. (2019م). النص الذي نحيا به (قضايا ونماذج في تماسك النص ووحدة بنائه). ط1، عمّان: دار كنوز المعرفة.
- الجاحظ، أبو عثمان. (1423هـ). البيان والتبيين. ج1، بيروت: دار ومكتبة الهلال.

- الجرجاني، عبد القاهر. (1992م). دلائل الإعجاز (تحقيق: محمود محمد شاكر أبو فهر). ط3، القاهرة: مطبعة المدني؛ جدة: دار المدني.
- حسان، تمام. (2006م). اللغة العربية: معناها ومبناها. ط5، القاهرة: عالم الكتب.
- الحسيني، ضياء الدين فاضل. (2015م). نظرية النظم عند الإمام عبد القاهر الجرجاني ومباحثها. ط1، عمّان: دار أروقة للدراسات والنشر.
- شامي، مليكة. (2019م). مباحث بلاغية وعلاقتها بالتداولية: التلاؤم والفواصل والتجانس. سلسلة الترجمة والمعرفة، العدد 12، إربد: عالم الكتب الحديث، ص 158.
- الشايب، أحمد. (2003م). الأسلوب. ط12، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.
- الشهري، عبد الهادي. (2015م). استراتيجيات الخطاب (مقاربة لغوية تداولية). ط1، عمّان: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع.
- الصبيحي، محمد الأخضر. (د.ت). مدخل إلى علم النص ومجالات تطبيقه. بيروت: الدار العربية للعلوم ناشرون.
- طلحة، محمود. (2019م). مبادئ تحليل الخطاب في التراث البلاغي العربي من خلال شروح التلخيص. ط1، عمّان: دار كنوز المعرفة.
- علوي، عبد السلام الإسماعيلي. (2017م). السميولسانيات وفلسفة اللغة. ط1، عمّان: دار كنوز المعرفة.
- العمري، أحمد جمال. (1990م). المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني (نشأتها وتطورها حتى القرن السابع الهجري). القاهرة: مكتبة الخالدي.
- القزويني، الخطيب. (د.ت). الإيضاح في علوم البلاغة. ط3، بيروت: دار الجيل.
- كروم، أحمد. (2015م). مقاصد اللغة وأثرها في فهم الخطاب الشرعي. ط1، عمّان: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع.
- محمد، أحمد سعد. (1999م). الأصول البلاغية في كتاب سيبويه وأثرها في البحث البلاغي. القاهرة: مكتبة الآداب.
- مغراوي، الحبيب. (2023م). المعنى الأدبي بين خصوصية التشكيل ورهان الفهم والتأويل. ط1، عمّان: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع.